العرب
الأربعاء 2020/04/08
السنة 42 العدد 11671

سينما المستقبل وفوبيا الوباء الذي اجتاح العالم

من فضلك: لا تنس أن تغطي فمك بيدك

أصبحت فترات الحصار الطويلة التي نقضيها رغما عنا داخل منازلنا نتيجة الانتشار المُخيف لفايروس كورونا، تدفعنا جميعا إلى البحث عن صلة جديدة مع عالم الفيلم، فلم يعد من المُمكن حاليا الذهاب إلى السينما، ولا إلى المهرجانات السينمائية الدولية، لمشاهدة الأفلام على الشاشة الكبيرة.

قاعات العرض الكبيرة في طريقها للاندثار

أمير العمري
ناقد وكاتب سينمائي مصري

في ظل حالة الحصار المنزلي الذي فرضه علينا انتشار فايروس كورونا المُستجد، أصبحت قنوات البث الرقمي عبر شبكة الإنترنت، من الوسائل البديلة المتوفّرة التي تُتيح مُشاهدة المئات من الأفلام بأقل التكاليف المُمكنة، طالما أن لديك اشتراكا مُريحا مع إحدى شركات خدمة الإنترنت، واشتراكا آخر مع منصة من منصات البث الرقمي مثل نتفلكس.

ربما كان هاجس ما، لا أعرف له سببا، قد دفعني في أواخر العام الماضي إلى شراء جهاز لعرض الأفلام في المنزل، لتوفير ما يسمى بـ"السينما المنزلية" أي يمكن توصيله بجهاز الكومبيوتر الصغير المحمول. وبالتالي عرض الأفلام سواء من نتفلكس أو غيرها، على جدار في غرفة الجلوس في منزلك. هذا إن لم تُخصّص غرفة كبيرة صالحة لهذا الغرض بالطبع إن كانت إمكانياتك تسمح بذلك. ويبدو أنني كنت أشعر بزوال متعة المشاهدة في دور السينما العامة.

> انقضى عصر دور العرض الأنيقة التي كانت تشعرك بأن السينما بشاشاتها الضخمة لا تقل عن المسرح بتقاليده العريقة

كنت دائما أرى أن عصر "دور السينما" التي تشبه المسارح الكبيرة ذات الديكورات والطرز المعمارية البديعة، قد انتهى، مع الاتجاه السرطاني في العالم منذ الثمانينات، إلى تقسيم دور العرض إلى "قاعات" صغيرة بعد التراجع الكبير في الجمهور مع ظهور شرائط الفيديو المنزلية وانتشارها، وما أعقبها من وسائل جديدة لعرض الأفلام ومُشاهدتها مثل الأسطوانات المدمجة وشقيقاتها، والتوسّع الهائل في القنوات التلفزيونية الفضائية المُخصّصة التي تبث الأفلام من كل الأنواع.

حل وسط

انقضى عصر دور العرض الكبيرة الأنيقة التي كانت تشعرك بأن السينما لا تقل عن المسرح بتقاليده العريقة، بشاشاتها الضخمة، وما يسبق العرض من موسيقى قد تكون مكتوبة خصيصا لكي تسبق عرض الفيلم، خاصة لو كان من نوع الأفلام التاريخية الكبيرة المُبهرة مثل "لورانس العرب" و"بن هور" و"نابليون" وغيرها، وستائرها المشغولة بدقة التي تجعلك تشعر عندما تتمّ إزاحتها، بأنك توشك أن تدلف إلى عالم سحري شديد الخصوصية والسحر والرونق.

بعد ذلك أصبح البديل هو الجلوس داخل عُلب ضيقة خانقة ذات أسقف منخفضة تكتم الأنفاس، فوق مقاعد مرصوصة في صفوف مُتقاربة ضيقة حيث لا يُمكنك أن تمدّ ساقيك بشكل مريح، بل تظل تكافح لكي لا تصاب بالتيبّس العضلي، وربما تعاني أيضا – كما كان يحدث كثيرا معي – من قلة ذوق الكثير من أفراد الجمهور الذين قد يلقي بهم حظك السيء في طريقك أو بالأحرى، إلى جوارك أو وراءك مباشرة، والذين لا يتوقّفون عن فتح أجهزة هواتفهم المحمولة والتطلّع إلى ما يصلهم من رسائل أو الردّ عليها وأحيانا إجراء الاتصالات الصوتية بكل ما يُسبّبه هذا من مضايقات.

هذه "العُلب" الضيقة الخانقة تعرض الأفلام على شاشات صغيرة، وقد لا تتّسع أحيانا لأكثر من 30 أو 40 مقعدا، فدور السينما مُتعدّدة القاعات أو المجمّعات السينمائية التي تحتوي عادة على 8 قاعات أو أكثر، تريد أن تعرض أكثر من فيلم في أكثر من قاعة في نفس الوقت.

ومن هناك، لا تُحقّق خسائر كبيرة إذا عرضت فيلما واحدا في قاعة كبيرة، خاصة لو كان الفيلم من الأفلام "الفنية" التي لا يذهب لمشاهدتها عادة سوى المُغرمين بهذا النوع "المثقّف" من الأفلام، وخاصة لو كانت ممّا يطلقون عليه في الغرب "الأفلام الأجنبية"، أي غير الناطقة بلغة البلد الذي تعيش فيه. وفي حالتي الشخصية ولكوني أقيم في العاصمة البريطانية لندن، فالأفلام الأجنبية هنا هي غير الناطقة بالإنجليزية، أي تلك التي يتعيّن عليك متابعتها من خلال الترجمة المطبوعة لحواراتها على الشريط السينمائي نفسه.

كنت قد شاهدت مثلا، فيلم "الصمت" لمارتن سكورسيزي، في قاعة تقع تحت الأرض، لا يتجاوز عدد مقاعدها 30 مقعدا. ولذلك كان إحساسي دائما عندما أضطرّ إلى مشاهدة الأفلام "الفنية" في مثل هذه القاعات الصغيرة الخانقة أن تجربة مشاهدة الأفلام في قاعات السينما اقتربت كثيرا من مُشاهدة التلفزيون في البيت. أقصد من حيث مساحة الشاشة، فمع تضاؤل مساحة شاشة القاعة السينمائية كبرت مساحة شاشة أجهزة التلفزيون الحديث.

أما جهاز العرض المنزلي فقد تفوّق على شاشة التلفزيون، وأصبح يمنحك مشاهدة سينمائية داخل قاعة خاصة، حيث لا يُمكنك أن تشكو من قلّة ذوق بعض أفراد الجمهور، ولا ارتفاع أصواتهم أو رنين هواتفهم المحمولة أو الضوء الذي يُحرّف انتباهك الصادر من شاشات تلك الهواتف اللعينة التي أصبحت في أيدي الجميع. وهو على أيّ حال، حلّ وسط جيد بين السينما والتلفزيون.

وأنواع أجهزة العرض المنزلي كثيرة وتتراوح أسعارها بين بضعة جنيهات إلى آلاف الجنيهات، والعبرة بالطبع بمستوى نقاء الصورة وعُمر مصباح الجهاز أيضا، فهو لا يعيش إلى الأبد بل له عُمر افتراضي ينتهي بعده ويتعيّن استبداله.

صحيح أن هذا النوع من المُشاهدة المنزلية يحرمنا من التقليد السينمائي الذي كان يميّز السينما، أي مُشاهدة الأفلام مع الجمهور في طقس جماعي مُشترك، والإحساس بمشاعر الآخرين من حولك. ولكن ماذا يُمكنك أن تفعل وقد أصبحت محاصرا في عصر كورونا، وذلك التشكّك المُخيف في بعضنا البعض.

سعال وتوبيخ

في فبراير الماضي كُنت أحضر مهرجان برلين السينمائي، وتصادف جلوسي إلى جوار صحافية ألمانية. وقبل العرض ولكوني قادما من الطقس البارد في الخارج أفلتت مني "سعلة" خفيفة مُقتضبة. فما كان من السيدة الجالسة بجواري سوى أن تطلّعت إليّ في حدة وقالت "هل يمكنك أن تضع يدك فوق فمك عندما تسعل من فضلك؟".

استغربت كثيرا قولها هذا وكان ردّي المباشر عليها "ولكني فعلت. وهو ما أفعله دائما. لكنك لم تكوني تنظرين إليّ.. أليس كذلك؟". ارتبكت المرأة وأخذت تبحث دون جدوى في حقيبتها التي وضعتها على الأرض، عن كمّامة ثم ابتسمت وقالت إنها نسيت أن تحضر الكمّامات معها.

الغريب في الأمر أنّني ظللت طوال عرض الفيلم لأكثر من ساعتين، دون أن تفاجئني الرغبة في السعال على الإطلاق، فقد كان السعال الأول مجرد "تسليك" أكثر منه سعالا. أما السيدة الألمانية فقد سعلت ستّ مرات. وكُنت في كل مرة لا أنسى أن أتطلّع إليها لأتأكّد من أنها وضعت يدها على فمها. فقد أصبح القلق ينتابني. ألم أقل إن السينما المنزلية أفضل كثيرا في الوقت الحالي على الأقل!

يجب أن أعترف بأن تغطية الفم باليد أو بمنديل ورقي مثلا، عند العطس أو السعال، ليست من العادات العربية الأصيلة، ربما لأن المجتمعات العربية أكثر حميمية، وأقل شعورا بالفردية، وأكثر ميلا للتحرّر من القيود بسبب كثرة القيود "الرسمية" المفروضة على الجميع لسبب أو من دون أيّ سبب.

لكني لا أنسى مشهدا جرى أمام عيني داخل مصعد محطة من محطات مترو الأنفاق في لندن عندما وصلت إليها للإقامة فيها في منتصف الثمانينات. ازدحم المصعد بالصاعدين من تحت الأرض. داخل زحام المصعد كان شاب عربي يقف بالقرب من عجوز إنجليزي بدا كأنه خرج لتوّه من أحد أفلام الثلاثينات، وكان يرتدي معطفا من وبر الجمل، ويحمل مظلة في يده، ويرتدي قبعة، أي أنه كان إنجليزيا كلاسيكيا.

وأفلت من الشاب العربي سعال خشن من دون أن يُغطّي فمه بيده. فرمقه العجوز الإنجليزي "شزرا"، كما يقولون، وخاطبه بلهجة توبيخ واضحة "يجب أن تستشير طبيبا!".

أودّ فقط أن أختم هذا المقال بالقول إن الفائدة الوحيدة من "حالة الحصار" الناتجة عن انتشار وباء كورونا، دفعتني لمُشاهدة الكثير من كلاسيكيات السينما العالمية، وإعادة مشاهدة بعض الأفلام التي تركت بصماتها بقوة على ذاكرتي. وقد شاهدت للمرة الثالثة فيلم "الأيرلندي" لسكورسيزي، واكتشفت فيه أشياء كثيرة كانت قد فاتتني عندما شاهدته للمرة الأولى على شاشة كبيرة في ختام مهرجان لندن السينمائي في أكتوبر الماضي.

وتيقّنت أن ممّا يجعل هذا الفيلم عملا شديد الرونق والسحر والقوّة والتأثير، تلك "الكيمياء" المُدهشة التي تجمع بين أداء أبطاله الثلاثة روبرت دي نيرو وجو بيشي وآل باتشينو.

لا أعرف متى تُعيد السينمات فتح أبوابها مُجدّدا بعد أن ينقضي الوباء. لكن نصيحتي: لا تنس أن تضع يدك على فمك عندما تسعل داخل السينما، وإلا تعرّضت للتوبيخ!

النهاية الآن، أو ربما ليس بعد.. في الأعمال التشكيلية

ميموزا العراوي
ناقدة لبنانية

ينمو اليوم حس التأويل في ذروة فصوله بين تشقّقات الوجود وتجرّحات النوافذ المُطلة على الذات وعلى العالم الذي تتغيّر ملامحه بشكل سريع، دون أن تكون هناك الفرصة المُتاحة إلى التّماس معه واقعيا بسب قوانين الحجر الصحي الصارمة. تماس قد يلعب دور التحفيف من جنوح الخيال ليكون أقل مبالغة وأكثر قابلية للتطويع.

من دواخل بيوتنا المُوصدة نتحوّل بتحوّل العالم ليطفو على سطح الوعي كل أنواع السناريوهات الأكثر غرابة إن لم نقل، فظاعة. بات التأويل سيد الحاضر والأفعال. ولأجل جعله قانونا شاملا تنتفي أهمية كل أمر آخر لا يخدم هذا التأويل.

لم يكن حسّ التأويل يوما بعيدا عن حياة الإنسان، وإن كان من المستحيل العودة هنا إلى أبعد تاريخ بدأ فيه الإنسان حياته في هذا الوجود. يُمكننا على الأقل العودة إلى أواخر القرن الرابع عشر مع الفنان هيرونيموس بوش، لاسيما إلى لوحته التي تحمل اسم "حديقة الملذات". لماذا اخترنا الحديث عن هذه اللوحة دون غيرها من اللوحات التي يصعب إحصاؤها والتي تتحدّث عن الوجود الإنساني؟

أولا، لأنها لوحة بانورامية تصوّر الذكور والإناث، الصغار في السن والكبار وكافة طبقات المجتمع من فلاحين وأمراء ورجال دين وأغنياء. كما تصوّر الجحيم والجنة كعالمين ليسا فقط مُتجاورين يحدّ بينهما انقسام ضعيف، ولكن أيضا هما مُتداخلان في مشاهد فرعية يصعب فيها التمييز ما بين ما هو قاتم وما هو مُنير.

لوحة يظهر فيها الإنسان ليس كما في لوحات النهضة الإيطالية التي أرست مفهوم الإنسان كقلب للعالم وكفلك تدور من حوله ولأجله كل الكائنات والروايات والمظاهر الكونية، بل كتفصيل دقيق يشبه في أحيان كثيرة حشرة ترتع في أرض واسعة وتخضع لكل ما يلفح بها ومنها من رياح آثمة وعطرية.

والأهم من ذلك، ثمة ما يشي بموتها المُحتّم الذي يرافقه كظل حتى في أكثر اللحظات انغماسا بملذات الحياة الأرضية. يقف المُتأمّل في هذه اللوحة وعلى لسانه أكثر من سؤال: ماذا لو انهار الجحيم وبمعيته الجنة الأرضية والجنة الميتافيزيقية؟ ماذا لو لاقت كل هذه الكائنات البشرية مجهولة الهوية والسيرة الشخصية حتفها؟ هل سيشكل هذا الحدث أيّ أهمية كبرى؟

ربما أجاب من حيث لا يدري رئيس الولايات المتحدة الأميركية، دونالد ترامب، عن هذا التساؤل بالنفي من حيث لم يقصد، ليس لأنه الأسوأ من بين البشر، ولكن ربما لأنه الأكثر نطقا بوحشية الجنس البشري تجاه بني جنسه. فالرئيس يخاف انهيار الاقتصاد الأميركي أكثر من خوفه على موت الآلاف من الناس إذا استمر إغلاق المدن الواحدة بعد الأخرى خوفا من فايروس كورونا القاتل.

الجحيم والجنة عالمان مُتداخلان (لوحة للفنان هيرونيموس بوش)

وما يُصوّر أيضا هيرونيموس بوش، الذي عايش مرحلة الخوف من انتشار الطاعون مثله مثل جميع معاصريه، في لوحته هو "الوباء" بالمعنى المطلق، الذي يطال الأجساد والنفوس على السواء في حالات مُتداخلة يبدو بعضها نتيجة لبعضها الآخر. تجليات نشهدها اليوم في حالة تفشي الفايروس الذي نتج عنه مرضى وقتلى وتصرفات بشرية بطولية وشريرة في آن واحد.

في عودة إلى لوحة الفنان بوش، وبالأخص إلى البيئة الحاضنة، ففي تلك البيئة، أي بداية أواخر القرن الرابع عشر، لم يعد الإنسان يعتمد حصرا على ما تفسّره أو تؤوّله الكنيسة للوجود بل أصبح كفرد يُحاول أن يفهم بنفسه ويؤوّل العالم الذي يعيش فيه وصولا إلى تخيّل عالم ما بعد الموت. الأمر انسحب على الفنانين الذين كانوا ولم يزالوا مرآة للوجود ولكل ما يمتّ له بصلة.

لا يمكن تجاهل الأعمال الفنية التي صوّرت "الجنة" بصيغتها الأرضية والماورائية. لكن يمكن التأكيد على أن اللوحات التي صوّرت الجحيم بأشكاله

> فنانون كثر اشتهروا بتصويرهم للأبعاد الجهنمية للوجود وما بعده، وهي تتأرجح ما بين الواقع والخيال وما بين الحاضر والمستقبل

وأبعاده المختلفة هي أكثر عددا وأعمق أثرا. لا مناص من ذلك، لاسيما أن الجنة بأنواعها هي حالة سلمية نتمنّاها في سكينة عيشنا الهش. أما "الجحيم"، وليس بالضرورة الجحيم بالمعنى الديني، فهو أكثر واقعية على هذه الأرض ويتطلب منا تمعّنا مُتجدّدا بمسبّباته وأحواله ونتائجه كما تتطلّب مواجهته بسالة وقتالا.

وقد اشتهر فنانون كثر في تصوير الأبعاد الجهنمية للوجود وما بعده تأرجحت ما بين الواقع والخيال، ما بين الحاضر والمستقبل. ولعل من أهمهم هو الفنان بياتر بروغل والإنجليزي جون مارتن الذي لقّب بـ«فنان الجحيم».

يبقى هذا السؤال معلقا: هل نحن اليوم بصدد تأهيل جحيمنا إلى المرحلة النهائية؟